الأفكار الاقتصادية عند مالك بن نبي

د. البشير قلاتي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -قسنطينة

الملخّص:

يمكننا اعتبار المفكر الجزائري مالك بن نبي من أكبر المفكرين الذين اشتغلوا بدراسة الحضارة كأصل عام لكل مشاكل العالم الاسلامي ،ما يطرح على العقل المسلم، في هذا العصر. تحديات كبرى تقتضيه التفكير الجاد في حل مشكلة حضارته، ويعتبر التحدّي الاقتصادي من أهمّ التحديات التي تواجهنا اليوم والتي لا يمكنها أن تنفصل عن المشكلة الحضارية العامة .

حاول مالك بن نبي –كما حاول أستاذه الأول ابن خلدون– أن يحلّل المشكلة ويدرس أبعادها ضمن السيرورة التاريخية للحضارة الاسلامية، وضمن هذه المحاولات استطاع الرجل ضمن تحليلاته الفكرية أن يطرح مفهوما إيجابيا للاقتصاد مبني على التخطيط العلمي والاستثمار الاجتماعي الانساني الثقافي قبل الاستثمار المالي، وعلى أساس المعادلة الاجتماعية للمجتمع المسلم، محذّرا من واقع ما يسميه الاقتصادانية وهو مظهر للاقتصاد المزيّف ،الذي يتناقض مع مفهوم التنمية الحقيقية، بما يحمله هذا المفهوم من فوضى وعشوائية وتبذير وسوء تسيير وزراعة للمشاريع في الهواء، إقتصاد غير مؤسس على مصادر الثروة الحقيقية (الإنسان) فهو اقتصاد ريعي هشّ، يؤدي حتما إلى واقع الإفلاس والعبثية التي تعانيها مجتمعاتنا الإسلامية اليوم ،ومنها المجتمع الجزائري، ويبعدنا تماما عن مشروع حقيقي للإقلاع الاقتصادي الضروري كقضية وجود في معركة البقاء.

Abstract:

We can consider the Algerian thinker Malik bin Nabi of the most thinkers who worked study of civilization as an asset in both the Muslim world's problems, what puts on the Muslim mind in this day and age major challenges required serious thinking in solving the problem of his or her own, and is considered the economic challenge of the most important challenges facing us today and which do not It can be separated from the general cultural problem.

Try Malik bin Nabi -as tried his teacher first (IBN Khaldon-) to analyze the problem and is considering its dimensions within the historical process of the Islamic civilization, and within these attempts could the man within the intellectual analysis that raises a positive concept of the **economy** based on scientific planning and social human cultural investment by financial investment on the basis of social equation Muslim society, warning of the reality of what he calls **economism** a manifestation of the economy fake, which contrasts with the concept of real development, the magnitude of this concept of chaos and indiscriminate and wasteful and ill-conduct and agriculture projects in the air, the economy is based on the true sources of wealth (human) is the economy Rei, crisp, inevitably leads to the reality of Bankruptcy and absurd experienced by Islamic societies today, including the Algerian society, and takes us away completely from the real economic project is necessary to take off as a matter of presence in the global battle to survive.

عناصر الموضوع:

- مقدمة
- الفكر البنّابي والمرجعية الخلدونية
- مالك بن نبي ومشكلة التخلّف الاقتصادي
_ التنمية عند مالك بن نبي بين الاقتصاد والاقتصادانية
- الإنسان الجديد وفكرة الواجب، في مشروع الإقلاع الاقتصاد ي
- خلاصة

مقدمة:

لم يكن مالك بن نبي (1905/1973م) عالم اقتصاد، بل كان مفكر حضارة؛ دارسا لمشكلاتها، متأملا في أبعادها، ومن هذه الأبعاد البُعد الاقتصادي الذي خصص له دراسة بعنوان (المسلم في عالم الاقتصاد) .

لا يمكن لباحث في الفكر الإسلامي المعاصر، وخاصة في الدراسات الحضارية، أن يتجاهل دراسات مالك بن نبي، الرّجل الذي كرّس حياته لتحليل الظاهرة الحضارية محاولا فهم أسباب النشأة والقيام وعوامل الانحطاط والزوال....

درس الرجل الظاهرة الحضارية كمشكلة (بأبعادها المختلفة)، محاولا بمنهج تحليلي تركيبي نقدي أن يفكك عناصرها ويضع منهجا لفهمها ويحل إشكالاتها ...وكان في ذلك_ بحق_ ابن خلدون عصره....

يُشكّل المشكل الاقتصادي أحد أهم التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية اليوم؛ حيث تعاني مجتمعاتها (ومنها المجتمع الجزائري) واقع تخلف اقتصادي كبير، زاد من هوة تخلفه وتأخره عن اللحاق بركب التقدم الحضاري العالمي. وبقدر ما يشير ذلك إلى ظاهرة عجز واتكالية وضعف وهوان، يشكل –أيضا– بالمقابل، خطرا يرهن السيادة الوطنية لقرارات هذه القوى الكبرى (ما يطلق عليه عالم الكبار)؛ لأنّ أجنّة الاستعمار التاريخي القديم لا تزال حية في ثقافتها، كما تؤكده الأحداث والوقائع المعاصرة...

نظرا لأهمية فكر مالك بن نبي في دراسة الموضوع في إطاره الحضاري الفكري الشامل، وأهمية تحليلاته الدقيقة لمفهوم الاقتصاد في بعده الإنساني والاجتماعي، وحرصه على صياغة أفكاره في إطار معادلات رياضية –تأثرا بطبيعة تكوينه العلمي –كمهندس كهرباء–، فإني أعتقد أن فهم أفكاره وتحليل أبعادها، يمكن أن يفيد النخبة المثقفة والأكاديمية ورجال السياسة عندنا خاصة ونحن نواجه اليوم تحديات عالمية خطيرة قاصمة.

كيف نفهم طبيعة تخلفنا الاقتصادي الذي سلمنا لحالة من التبعية المقلقة، ولماذا فشلت مشاريعنا التنموية وزادتنا تبعية للغرب بدل أن نتحرر ونتطور، رغم ما حبانا الله به من موارد وثروات (في عالم الأشياء)؟.

هل بالإمكان تحقيق ما يسميه مالك بن الإقلاع الاقتصادي**DÉCOLLAGE ÉCONOMIQUE**...كيف يمكننا فهم طبيعة مشكلاتنا في إطارها الحضاري العام؟...

لنفهم المشكلة الاقتصادية في مشروع النهضة الحضارية في فكر مالك بن نبي، نحاول معرفة شروط **الاقتصاد** الحقيقي مقابل مفهومه **للاقتصادانية**، ومعرفة خصائص كل منهما، حتى نترسم طريقا صحيحا لتحقيق الإقلاع الاقتصادي، حتى نتمكن من التخلص من عقال التبعية الرهيب.

أما الجدلية (DIALECTIQUE)، فهي عملية فكرية تتضمن معنى التقابلية بين قضيتين أو أكثر: مرتبطة بـ"فن الحوار، عبر النقاش....تحمل فكرة التناقض والازدواجية وهي من صميم الحججية"، كما يقول (جيل فيرون).[1]

تُعبّر عن فكر مالك بن نبي، دراساته الكثيرة ومحاضراته التي تركّزت على أزمة تخلّف الأمة في منظور شمولي وإطار عام وهو إطار الحضارة في سيرورتها صعودا وهبوطا. ولامست مختلف جوانب الأزمة ومنها الجانب الاقتصادي... من هذه الدراسات، دراسة خاصة حلّل فيها المشكلة الاقتصادية في العالم الإسلامي، نشرها عام 1972م ببيروت، سماها: "المسلم في عالم الاقتصاد"، ضمّنها رؤيته للمشكلة الاقتصادية مع توجيه فكري منهجي لحلّها، مساهمة منه في تنمية بلد حديث الاستقلال.

الفكر البنّابي والمرجعية الخلدونية :

في دراسته "أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث" يقول (فهمي جدعان):

((لقد كان مالك بن نبي أبرز مفكر عربي عني بالفكر الحضاري بعد ابن خلدون، ومع أنه قد تمثل فلسفات الحضارة الحديثة تمثلاً عميقا واستلهم في أحايين كثيرة أعمال بعض الفلاسفة الغربيين، إلا أن ابن خلدون بالذات يظل أستاذه الأول وملهمه الأكبر))[2]. ولاشك أن الاطلاع المبكر لمالك بن نبي على مقدمة ابن خلدون، من خلال ترجمة فرنسية، كان له تأثير على فكره الحضاري عموما، وخاصة ما ذهب إليه من أفكار في الجانب الاقتصادي .

يؤكد ابن خلدون على أن الاقتصاد أساس قوة الدولة يقول: "اعلم أن مبنى الملك على أساسين لابد منهما، فالأول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند، والثاني المال الذي هو قوام أولائك الجند، وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال"[3]. ولا تتحقق قوة الدولة إلا باقتصاد قوي يزيد في توسيع العمران ويأمن الناس فيه على معاشهم فيزيد النشاط الاجتماعي ويكثر النسل، ووفرة المال يسميه ابن خلدون الترف الذي يزيد الدولة في أوّلها قوة إلى قوتها والسبب في ذلك "أنَّ القبيل إذا حصل لهم الملك والترف وكثر التناسل والولد والعمومة، فكثرت العصابة، واستكثروا أيضا من الموالي والصنائع وربيت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه، فازدادوا بهم عددّا إلى عددهم وقوة إلى قوتهم"[4]

---

[1] – جيل فيرون، معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة أنس محمد الأسعد، ط1، بيروت: دار ومكتبة الهلال، 2011م، ص73.

[2] – فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ط2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981م، ص 410.

[3] – عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، د.ط، بيروت: دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، د.ت، ص، ج1، ص 251 .

[4] – نفس المرجع، ص 309 .

ويرى أن خطورة الظلم والقهر السياسي على المجتمع نفسه فيقول: ((والظلم مؤذن بخراب العمران،... اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السّعي في ذلك..))[5]

ومن أشد أنواع الظلم :تسخير الناس في أعمال دون إعطائهم مقابلها حقوقهم التي يستحقونها، مما يؤدي إلى عزوفهم عن العمل كذلك ما تقوم به الدولة من شراء السلع من العمال والفلاحين بأسعار زهيدة واحتكارها ثم إعادة بيعها لهم بأثمان باهظة ... وهو ما يؤدي إلى كساد السوق وضعف العمل وقلة الإنتاج فتتحلل الدولة ويضعف عمرانها، كل ذلك بسبب الترف وأنواع الجبايات التي يستكثرون منها ويسمونها بألقاب شتى يقول:

((ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر، والحاجة إلى أموال الناس تشتد، ونطاق الدولة (سلطتها) بذلك تزيد إلى أن تنمحي دائرتها ويذهب رسمها ويغلبها طالبها، والله اعلم))[6].

يذكر الباحث المصري (سعد الدين إبراهيم) أن الرئيس الأمريكي السابق (رونالد ريقن) استشهد – وهو يعرض برنامجه الاقتصادي على الشعب الأمريكي على التلفزيون شتاء عام 1983 م بابن كلدن (كما نطقها ريغن)، الذي قال أن كثرة الضرائب الفادحة تصرف المواطنين عن الإنتاج والاستثمار الذي يستفيد منه البلد وتدفعهم إلى كنز أموالهم. بما يعود بالضرر على الاقتصاد الوطني.[7]، وهو ما يثبت فعلا ألمعية ابن خلدون في فكره السياسي والاقتصادي، ومن هنا ندرك كيف استطاعت السياسة في الغرب الاستفادة حقا من أفكار هذا العبقري بينما لم تتحقق فعاليتها في العالم الإسلامي، وقد أشار مالك بن نبي في قوله: "والحقّ أن الاقتصاد في الغرب قد صار منذ قرون خلت ركيزة أساسية للحياة الاجتماعية، وقانونا جوهريا لتنظيمها. أما في الشرق فقد ظلّ على العكس من ذلك في مرحلة الاقتصاد الطبيعي غير المنظّم، حتى أن النظرية الوحيدة التي تناولت تأثير العوامل الاقتصادية في التاريخ —وهي نظرية ابن خلدون–قد ظلّت حروفا ميّتة في الثقافة الإسلامية، حتى نهاية القرن الأخير))[8]

أشير إلى أن تأثُّر مالك بن نبي بالفكر الاقتصادي الخلدوني كان تأثرا بالمنهج ودراسة الأسباب والأبعاد الاجتماعية والأخلاقية للمشكلة الحضارية، مع انطلاق كل واحد من واقعه، تحديات عصره وظروفه.

مالك بن نبي ومشكلة التخلّف الاقتصادي:

إذا أخذنا التنمية على أساس أنها حركة ونشاط اقتصادي مستمر يحقق فائضا في الإنتاج ويرفع من مستوى الدّخل الفردي ويوفر الضمانات الاجتماعية للفرد؛ فإن التخلّف يشكل – في المقابل– عند مالك بن نبي ((كساد الطاقات الاجتماعية))؛ وهو أن تتحول عناصر الحضارة إلى كمٍّ مهملٍ: إنسان حائر في زمن ضائع على تراب بائر!!... وهو ما

---

[5] – نفسه، ص 525، 526، .

[6] – نفسه، ص 513، 514 .

[7] – أحمد صبحي منصور، مقدمة ابن خلدون، دراسة أصولية تاريخية، تقديم سعد الدين إبراهيم، القاهرة: مركز ابن خلدون، دار الأمين للنشر، 1998م، ص6.

[8] – مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط3، الجزائر، دمشق، دار الفكر، 1413هـ/1992م ص159

.

نلمسه اليوم في دول العالم العربي التي تُصنف ضمن ما يُسمى بدول العالم الثالث، ومنها تلك الدول التي تعتمد على ما يسمى (الاقتصاد الريعي)؛ أي الاعتماد شبه الكلي في صادراتها على ما حباها الله به خيرات الطبيعة وخاصة البترول...

تحدّث مالك عن التراب ويقصد به المادة (عالم الأشياء) في معادلته الحضارية، رابطا قيمة المادة بالإنسان الذي يتعامل معها؛ إذ يؤثر في مجرى التاريخ من خلال مؤثرات ثلاث: فكره، عمله وماله؛ فالإنسان (بإرادته) هو العنصر الفاعل في المعادلة كلها.

ركّزت الدراسات البنّابية عن الإنسان في جانبه الثقافي، بما يحمله من فكر وأخلاق وذوق للجمال وسلوك..، أما الجانب المادي (عالم الأشياء) فهو (إمكان حضاري) متغير تابع للإرادة الحضارية النابعة من الإنسان ذاته، حيث الإرادة سبب للإمكان لا العكس، (خلافا للطرح الماركسي)، وهذه الفكرة ليست من نسج خيال مالك ولكن نتيجة تأمّل عميق في أحداث ووقائع التاريخ التي تشير فعلا إلى أن أمما كبرى تحطّم عالم أشيائها –كليا تقريبا–، نتيجة حروب مدمّرة (مثل ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية) لكنّها أعادت بناء نفسها من جديد، وما هي إلا سنوات حتى حققت معدلات تنمية فاقت بها حتى الدول التي هزمتها عسكريا، والسّبب يكمن أساسا في ثقافتها الحيّة التي لم تُهزم، فانبثقت منها الإرادة التي صنعت نهضة ألمانيا بما اعتبر (المعجزة الألمانية)...

وعلى هذا الأساس وضع مالك المعادلة الرياضية للنهضة :

إرادة حضارية + إمكان حضاري = نهضة حضارية

يؤكد مالك على أهمية دراسة مشكلة تخلف العالم الإسلامي، وكيفية تصور معادلة التنمية المستدامة، التي تنقذه من ورطة **التبعية** التي تعانيها دول العالم الإسلامي، في عالم أضحت فيه العلاقات الاقتصادية متحكمة في القرارات السياسية، خاصة مع ما يسمى بظاهرة (العولمة) التي يُعتبر البُعد الاقتصادي (سيطرة البنوك العالمية، نشاط الشركات العالمية الكبرى، ..) من أبرز مظاهرها؛حيث تحرص القوى الكبرى على فرض اقتصاد السوق وثقافته،[9] منبها على أن هذه القوانين لا تخضع لمنطق علمي في الاقتصاد بل تخضع لقانون الاستعمار العالمي الجديد الذي يهدف إلى الهيمنة الشاملة.[10]

ينظر مالك –كعادته– إلى مشكلة التخلف كمشكلة تخلف حضاري عام، لا مجرد تخلف اقتصادي متعلق بالوسائل ؛ ولذا نراه يأخذ عليهم اتجاههم إلى استيراد أشياء الحضارة القوية وتكديسها، ظنا منهم أنهم يبنون حضارة، غافلين عن حقيقة تاريخية علمية وهي أن الحضارة يمكن أن تبيعهم أشياءها لكنّها لا يمكن أن تبيعهم روحها، وهي صورة ناتجة عن تصور قاصر وقع فيه المسلم حين فتح عينيه فرأى أمامه حضارة قوية فدخل صيدليّتها، يأخذ من هنا قرصا ضد الجهل ومن هناك حبة ضد الفقر ومن هناك عقارا ضد الاستعمار!![11]...، وهو موقف ساذج لم يزده إلا مرضا، وربما عمد إلى الاستدانة وجلب القروض، يصرفها في مشاريعه الفاشلة أصلا ؛بسبب إهمالها المعادلة الاجتماعية أو لسوء

---

[9]– وهي (أمركة) سبق أن توقعها مالك في وقت مبكر: أنظر، مذكرات شاهد للقرن، إصدار ندوة مالك بن نبي، ط2، دمشق: دار الفكر1404هـ/1984م، ص 40

[10]– مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، مرجع سابق، ص64...68

[11]– مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوي، دمشق:دار الفكر، 1406هـ/1986م، ص42.

التخطيط فيها، فلا تحقق أكثر من رهن سيادة البلاد لشروط المقرض...وهو ما يجعل مالك يطرح مفهوم **الاقتصادانية** في مقابل الاقتصاد.

التّنمية عند مالك بن نبي بين الاقتصاد والاقتصادانية:

تقوم التنمية الاقتصادية الناجحة على دراسات علمية منهجية، تأخذ بعين الاعتبار المعادلة الاجتماعية للمجتمع، وهي قبل كل شيء استثمار اجتماعي قبل أن تكون استثمار مالي وهذا هو (الاقتصاد L'économie)، الذي يقوم على الاستثمار في العنصر الأول للمعدلة الحضارية؛ وهو الإنسان، تعمل على زرع الإرادة الحضارية في نفسه، (تحقيق الجانب النفسي والاجتماعي في الإنسان)، ليكون إنسانا فعالا، إذ أن القاعدة التنموية هي أن لا تنمية مادية دون تنمية بشرية؛ ببناء الإنسان الرسالي الفعال، والذي بإمكانه استثمار التراب (المادة) والزمن...

لا تتحقق التنمية، ولا يمكنها أن تتحقق، بتكديس الأشياء أو باقتباس حلول من الشرق أو من الغرب، دون مراعاة **المعادلة الاجتماعية** (الخصوصيات الثقافية لكل مجتمع) للأمة الإسلامية، وأساسها **القيم الدينية**، اللغة، العادات.....وهذا ما يفسّر به مالك فشل تجربة الخبير الاقتصادي الألماني (شاخت) في (أندونيسيا)، بينما نجحت خططه في بلده ألمانيا،[12].

على هذا التأسيس الفكري يشير (مالك بن نبي) إلى خلل في الفكر الاقتصادي عندنا في ناحيتين:

– حصر الاختيار بين مذهبين، اشتراكي ورأسمالي، دون التنبه إلى وجود مذهب ثالث خاص بالمجتمعات الإسلامية؛ أي مذهب ينطلق من الخصوصية الثقافية للمجتمع المسلم.

– حصر النشاط الاقتصادي في الاستثمار المالي وحده، في حين أن القضية تتعلق بالإنسان ذاته بإرادته في البناء الحضاري لا في عالم أشيائه أي إمكانه الحضاري.وهنا لبّ القضية.

إنّ المشكلة لا تكمن في قلة الموارد، فنحن نعلم ما حبى الله تعالى بلاد المسلمين من ثروات طبيعية هائلة (تفتقر إليها كثير من البلاد المتقدمة) ؛لكن المشكلة في سوء استخدام هذه الموارد، عبر **ظاهرة التبديد**، (ضروب اللافعالية) في المجتمع.وكثيرة هي الأمثلة التي يمكن إيرادها هنا مثلا ظاهرة هبوط مستوى الدخل ب16% في البلاد بعد خروج المستعمر، والتي لا يمكن تبريرها بصورة كاملة بالأسباب موضوعية وحدها، ولذا نراه يحصي نسبة الضروريات إلى الكماليات 5% إلى 95%..!! وهو ما يشير إلى أن التحلُّل هو في القيم الاجتماعية[13]. وهو كلام صحيح، لا زلنا نرى مظاهره في هذا التبذير الواسع في الاستهلاك الذي يزداد عند أسرنا، خاصة في شهر رمضان حيث من المفترض أن يكون شهرا للصوم والعبادة...

هذا الكساد هو ما جعل مالك يعتبر النشاط الاقتصادي الذي تسوده الفوضى في البلاد الإسلامية (**الاقتصادانية** L'économisme) وتعني الفوضى في الأنشطة المالية، ضروب التبديد والتبذير والعشوائية في صرف الأموال، دون دراسة لمشاريع الاستثمارات المالية، بما يقابل (**البوليتيكا**) في السياسة، وكلاهما مظهر للقابلية للاستعمار؛؛ ما جعل مالك يضع المشكلة في إطارها الصحيح كمشكلة تربوية، حيث لا بد أن توضع ضمن برنامج تربوي يثمّن قيمة الإنسان أولا (بما

---

12 – يذكرها مالك في أكثر من موضع؛ بما يؤكد أهميتها، أنظر مثلا: كتابه فكرة الإفريقية الآسيوية، مرجع سابق، ص161 .
وكتاب تأملات، إشراف ندوة مالك بن نبي، ط5، دمشق:دار الفكر، 1412هـ/1991م، ص56، 57.

13 – مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق، ص 20، 21.

كرّمه الله وجعله خليفة) ثم قيمة الزمن (الزمن هو الحياة وهدره قتل لها) واعتبار العمل عبادة، ثم تثمين قيمة المادة كوسيلة تنمية، واعتبار كل عمل تبذيري في عالم الاشياء عمل شيطاني يعاقب عليه، ولهذا يجزم مالك أنه لا يمكن تغيير الوضع الاقتصادي الا بتغيير اجتماعي بتطبيق خطة تنمية تفتق أبعاده النفسية وتخلصه من تركة عصر ما بعد الموحدين، من خرافاتها وعقدها ومسلّماتها الوهمية.[14]

تؤدي هذه الفوضى المالية في تسيير الاقتصاد إلى: **التخلف الاقتصادي الذي يعتبره كساد الطاقات الاجتماعية الذي يُعيق عملية الإقلاع الاقتصادي**، ويقضي على كل جهود التنمية، والتنمية تكون طوع إرادة الإنسان؛ إذا تحرّك بفاعلية يكتشف الإمكان من عالم الأشياء..[15]، أما (الاقتصادانية) فهي صفةٌ للتسيير العشوائي والقرارات الارتجالية الفردية وتغليب مصالح فئات وأشخاص، بعيدا عن التخطيط العلمي والرؤية الاستراتيجية، خلافا لما يقتضيه الاقتصاد من علم وتخطيط استراتيجي دقيق مع مراعاة الأسس والخصائص الثقافية للمجتمع وهو ما يشكل شروط (معادلته الاجتماعية) .وهي حالة اجتماعية تقوم أساسا على المطالبة بالحقوق وإهمال الواجبات، ما يؤدي إلى حالة مجتمع مفلس لا يحقق فائض قيمة لتقدمه ولا يأمل مجتمع ما في تحقيق أي إقلاع اقتصادي وهو يعيش حالة التسيير الاقتصاداني...

لا بد أولا أن نعمل على تصفية قيمنا الثقافية السلبية التي تكرّس التخلف والعطالة والبطالة، وما يزخر به فلكلورنا الشعبي من بعض الأمثال تعكس ذلك مثل:"نأكل القوت وننتظر الموت!!".. وهو تعبير عن مظاهر العطالة والبطالة والاستسلامية التي تؤول إلى ظاهرة القابلية للاستعمار، **وما لم نتخلص من قابليتنا للاستعمار لن نتخلص من الاستعمار**، سنة الله في خلقه.....

الإنسان الجديد وفكرة الواجب، في مشروع الإقلاع الاقتصاد ي:

يؤكد مالك بن نبي على فكرة الواجب التي يقوم عليها (**الإقلاع الاقتصادي DÉCOLLAGE ÉCONOMIQUE**) (متأثرا بالفكر الألماني وخاصة كانت) حيث يصوغ ذلك بأسلوب رياضي .كعادته .كما يلي:

الطاقة الاجتماعية لا تحقق فعاليتها الحركية إلا إذا كان حاصل العمل (ر) على الطاقة المستهلكة (م) ايجابيا، أي =1 أو>1.

وكلما زاد المحصول نقص التبديد.. وهو ما ينطبق تماما على معادلة حق–واجب حسب ما يلي:

الواجب > الحق= +1	(قيمة ايجابية)	←	تقدّم حضاري
الواجب + الحق = 0	(قيمة منعدمة)	←	تخلّف حضاري
الحق > الواجب= –1	(قيمة سلبية)	←	تخلف شديد

ونفس المعادلة تنطبق على الإنتاج كواجب والاستهلاك كحق ؛حيث لا تنمية مستدامة (تقدم)إلا إذا تحققت المعادلة[16]:

---

[14]– نفس المرجع، ص 77 .

[15] – نفسه، ص ص، 59، 62، 63، 80، 82 .

[16] – انظر في ذلك دراسته :

الإنتاج > الاستهلاك

فالعلاقة: [إنتاج-استهلاك] في المجال الاقتصادي، مبنية أساسا على علاقة: [واجب-=حق] في المجال الثقافي، والمجتمع الذي تعزز فيه الثقافة بقيمة الواجب هو مجتمع منتج بالضرورة، ولا يمكن تحقيقه إلا بالتربية الاجتماعية، ومن هنا يرى مالك أن المشكلة في الاستثمار الاجتماعي قبل أن تكون في الاستثمار المالي، كما يؤكد من هذه الناحية على ربط النظرية الاقتصادية (كفكرة) مع النظرية السياسية حتى تتحول إلى واقع عملي. ولا يمكن أن نفصل النشاط المالي للاقتصاد عن البعد الأخلاقي ومفهوم الواجب المجسّد لمعنى الالتزام الذاتي، الذي لا يمكن تحقيقه إلا بالوازع الديني (كرقابة داخلية)، وهو بدوره لا يمكن غرسه إلا بالتربية الاجتماعية... وأخيرا ما الاقتصاد —كما يقول مالك-" إلا إسقاط البُعد السياسي على نشاط إنساني معيّن، فبقدر ما تبقى السياسة مرتبطة بمبادئ الأخلاق، يبقى الاقتصاد وفيا لهذه المبادئ."[17]...

جدول مقارنة خصائص الاقتصاد والاقتصادانية[18]

الاقتصاد	الاقتصادانية
علم	جهل
تخطيط	عشوائية
منهج	فوضى
واجب	حق
سياسة	بوليتيكا
إبداع	تقليد
إنتاج	ريع
بناء	تكديس
حضارة	بدائية
تنمية	ركود
تقدّم	تخلّف

خلاصة:

- فكرة كومنولث إسلامي، دمشق: دار الفكر1410هـ/1990م، ص، ص 59، 62.

- المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق، ص86، 87

[17] - مالك بن نبي، مجالس دمشق،، ط1، دمشق: دار الفكر، 1426هـ/2005م، ص 17

أنظر أيضا: المسلم في عالم الاقتصاد، ص 77 .

[18] - استخلصت ذلك من خلال قراءتي للفكر الاقتصادي لمالك بن نبي —رحمه الله-

مثل (إبن خلدون)، تميّز الطرح (البنّابي) لقضايا التغيير، بالعقلانية السننية، وفق مبدأ التفاعلية العقلانية الواقعية التي لا تتصادم مع النص الديني... بل تقدم فهما، له أبعاده الحضارية الشاملة دون إفتآت ولا اجتزاء...مع نظرة مقاصدية مناسبة...

ساعد التكوين الثقافي المزدوج لفكر الغرب وفكر الشرق، مالك بن نبي على تقديم رؤية متكاملة لمشكلات التغيير الاجتماعي منطلقا من دراسته لـ ((الظاهرة القرآنية)) للوصول إلى تحديد ((شروط للنهضة))، رسما لمسار ((وجهة العالم الإسلامي)) ((من أجل التغيير))، تحقيقا لشروط التغيير الاجتماعي الذي هو في النهاية تغيير حضاري؛ لأن أصل النهضة الحضارية: تغيير في منظومية ثقافة المجتمع المسلم، في سبيل بناء إنسان جديد؛ إنسان رسالي يعرف ذاته ومقومات نهضته، ويتحقق بفاعليته؛ فيرتفع بمستوى مجتمعه، من مجرد الوجود إلى قمة الشهود، فيكون حاضرا في توجيه دفّة السفينة... وهو هدف وظيفة الاستخلاف الإلهي للمسلم: أمانة الله التي أبت حملها السماوات والأرض والجبال وحملها الإنسان...

نظرا لكون التحدي الاقتصادي من أهم ما يواجه العالم الإسلامي في إطار سعيه للتغيير الاجتماعي في عالم عولمي لا يرحم الضعيف، فإن اهتمامَ مالك بن نبي _كمفكر وفقيه للحضارة_ بهذا البُعد الحضاري الخطير، اقتضانا دراسة طرحه الفكري حول مشكلة: الإقلاع الاقتصادي (DÉCOLLAGE ÉCONOMIQUE)...؛ باعتباره أحد أهم التحديات التي تواجه قضايا التغيير الاجتماعي في عالمنا المعاصر..ولا يمكن أن يتحقق هذا الهدف إلا ببناء وتخطيط واستراتيجية علمية بناء على المعادلة الاجتماعية للمجتمع المسلم (خصائص ثقافته) وتقديم قيمة الواجب على الحق لتوفير (قيمة مضافة) للحركة ضمن اقتصاد علمي حقيقي (économie)، أما البقاء في الفوضى والعشوائية والتكالب على الحقوق مع إهمال الواجبات والركون للعطالة والبطالة بالاعتماد السلبي على مجرد تصدير موارد طبيعية فهو الوقوع في اقتصادانية) économisme؛ فوضى ترمي بنا في أتون أفلاس حقيقي، نظنّه اقتصادا، مثل سراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء ...

بمنهج تحليلي رياضي، نقرأ فكرة الإقلاع الاقتصادي عند مالك بن نبي وفق المعادلة الاجتماعية الخاصة بمنظومة القيم الثقافية:

إرادة حضارية + إمكان حضاري = نهضة حضارية

والإرادة (الشروط المعنوية الخلقية والنفسية) سبب للإمكان (الشروط المادية)، والعكس غير صحيح... بدليل تجارب تاريخية حية (مثل نهضة الاقتصاد الألماني)...

لا يتحقق هذا الإقلاع ولا يمكن أن يتحقق، إلا بشرطين أساسيين:

– مراعاة المعادلة الاجتماعية (الخصائص الثقافية) للمجتمع المسلم، في مقدمتها قيمه الدينية ولغته وعاداته، دون استيراد مشاريع قد تصلح في مجتمعات أخرى لها خصوصياتها الثقافية.

– توجيه علمي ثقافي تربوي، تُشكل فيه فكرة الواجب قطب الرحى الذي تدور حوله منظومة السلوك الاجتماعي، وهو رأس المال الاجتماعي الذي يحقق لنا تنمية بشرية أساسية للإقلاع،،، ودون ذلك لا يمكننا التعويل على ضخامة استثماراتنا المالية (مهما كانت ملياراتها)والتي ستزيد من توريطنا في أتون (الاقتصادانية) المقيتة القاتلة؛ لأن الاستثمار الأساسي هو الاستثمار الاجتماعي ببناء إنسان رسالي جديد، مثل الغيث، أينما وقع نفع...

المراجع:

— ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ العلامة ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، د.ط، بيروت: دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، د.ت، ص، ج1 .

– بن نبي، مالك :

– تأملات، إشراف ندوة مالك بن نبي، ط5، دمشق: دار الفكر، 1412هـ /1991م.

– فكرة الإفريقية الآسيوية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط3، الجزائر، دمشق، دار الفكر، 1413هـ/1992م

– فكرة كومنولث إسلامي، دمشق:دار الفكر1410هـ/1990م .

– شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوي، دمشق:دار الفكر، 1406هـ/1986م .

– مجالس دمشق، ط1، دمشق: دار الفكر، 1426هـ/2005م.

– المسلم في عالم الاقتصاد،، إصدار ندوة مالك بن نبي، ط3، الجزائر، دمشق: دار الفكر 1407هـ/ 1987

– مذكرات شاهد للقرن، إصدار ندوة مالك بن نبي، ط2، دمشق :دار الفكر 1404هـ/1984م.

– جدعان، فهمي، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ط2، بيروت: المؤسسة العربية . للدراسات والنشر1981م. .

– جيل فيرون، معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة أنس محمد الأسعد، ط1، بيروت: دار ومكتبة الهلال، 2011م.

– منصور، أحمد صبحي، مقدمة ابن خلدون، دراسة أصولية تاريخية، تقديم سعد الدين إبراهيم،، القاهرة: مركز ابن خلدون، دار الأمين للنشر، 1998م.